الافتتاحية

كانت المرة الثالثة التي أزور فيها اليابان، التي تُشرق عليها الشمس قبلنا بست ساعات؛ فتسعى في الأرض قبلنا وتنام قبلنا، ويعمل شعبها أضعاف ما نعمل، وينتج مالا ننتج مثله. المرة الأولى كانت في منتصف السبعينات من القرن الماضي، عندما كنا نقوم بالاعلام عن اعتزام قسم التاريخ في كلية الآداب بجامعة الملك سعود، إقامة ندوة عالمية لدراسات تاريخ الجزيرة العربية، وأنَّ أول موضوع سيكون عن مصادر تاريخ الجزيرة العربية. وقد اتصلنا -وقتذاك- بالجامعات اليابانية في طوكيو، وتحدثنا معهم حول الندوة؛ ولكن يبدو أننا لم نوفق في الوصول إلى ذوي الاختصاص في هذا المجال لكي يشاركوا. أما الزيارة الثانية فكانت عام ١٩٨٩م، بدعوة كريمة من الحكومة اليابانية. وكنت -آنذاك- عميداً لكلية الآداب. فكانت زيارة منظمة ببرنامج وضع سلفاً لزيارة الجامعات والمعاهد المهتمة بالحضارة والتراث والآثار.

وخلال تلك الزيارة تكشفت لي أشياء لم أكن على عهد بها. كنت أسمع أن اليابانيين مهتمين بالآثار، ولكنني كنت أظن أنه اهتمام عادي، وأنهم لم يصلوا بعد إلى ما وصل إليه الغرب. فقد نقب الغربيون في كل ركن من أركان العالم العربي، في العراق والشام ومصر والمغرب العربي وبعض دول الخليج واليمن، أما الجزيرة العربية فقد جاسوا خلالها دون تنقيب جائر فيها؛ فلم يمّسوا إلا موقعين في شرقي المملكة، أحدهم فحصته بعثة دانماركية كانت تنقب في البحرين، والآخر نقبته شركة أرامكو، وهو مقبرة جاوان. وقد نقّب فيه الأستاذ فيدال، الذي نشر تقريره بالعربية في مجلة المنهل. وكان في برنامجي زيارة موقع أثري في داخل مدينة طوكيو؛ فصعدنا تلا أثرياً والمطر منهمر كالقِرَب، والطريق الذي يسلكه الزوار بين المربعات المحفورة محدد بحبلين أصفرين وكلٌ يحمل شمسية، أو لنقل "مطرية" ما يحمي نفسه من الماء المنهمر، وعشرات بل مئات الزوار يمرون في صمت، والمنقبون عن يمين وشمال يشرحون للزوار عن الطبقات والمعثورات.

وفي اليوم التالي حضرت اجتماعاً لجمعية الآثار اليابانية؛ فسألت عن هذه الجمعية، فقيل لي إنه الاجتماع السنوي، وهذا الاجتماع هو الخامس والخمسون. فسألت عن عدد الأعضاء، فقالوا ليس بالكثير إنه قرابة خمسة آلاف عضو، أما الحاضرون فلا يتجاوز عددهم عُشر الأعضاء. فذهلت وحضرت إحدى المحاضرات، وكانت عن موقع أثري. وما أروع ما رأيت! إنهم يستعملون كل وسائل التقنية الحديثة في عملهم؛ فإذا ما قابلتهم معضلة توقفوا، وذهبوا إلى إحدى الشركات لتصمم لهم جهازاً يساعد على مسيرة التنقيب، علمياً وعملياً. كما قُدِّر لي أن أزور كيوتو، وهي العاصمة القديمة لليابان. وقد حافظوا عليها معمارياً وحضارياً، فلا روائح ولا بقايا ولا صخب؛ بل روعة وهدوء في كل شيء، حتى كأنك تحسبها خالية وهي لا تزال مزهوله بالسكان، وبالقرب منها موقع "نارا"، وما أدراك ما "نارا"! إنها موقع متكامل، وعلى الرغم من مرور مئات السنين عليه إلا أنه يمكنك أن تتصور الحياة كيف كانت وكيف عاش فيها الأقدمون. أما متاحف التراث العالمي، فإنها تنقلك إلى العالم، لا بالصورة ولكن بالواقع الذي تعيشه من خلال التراث الشعبي العالمي المعروض أمامك من أقاصي الأرض إلى أقاصيها، حتى الشال الغباني والطاقية المكية المعروفة تجدها،

فتشعر وكأنك في حواري مكة قبل خمسين عاماً. تلك هي الثقافة والحضارة، التي تنقل إليك بدل أن تنتقل إليها. فتعرف عن الآخرين الشيء الكثير، فتشتاق إلى الرحلة لترى أولئك الأقوام وما هم عليه، وماذا تغير فيهم نتيجة لطغيان الحضارة الغربية، التي أخذت دورها في تغيير حياة الشعوب.

*****

ولكن لِمَ كانت هذه الزيارة الثالثة؟ قبل ثلاث سنوات رنّ الهاتف في مكتبي، وإذا على الطرف الآخر البروفيسور كاواتوكو يتحدث؛ إنه يريد مقابلتي، فرحبت به ومعه تلميذة من تلاميذه الكثر. إنه عالم الآثار الياباني الشهير، نقّب في الفسطاط، عاصمة الإسلام الأولى في مصر، بل في قارة أفريقيا، ونقب في سيناء، وفي الطور، إذ كشف عن ميناء إسلامي، ونشر عدداً كبيراً من الأبحاث عن أعماله. وكان الهدف من تنقيبه في الميناء السينائي في منطقة الطور، هو معرفة العلاقة بين الصين وموانئ البحار العربية: البحر الأحمر والبحر العربي والخليج العربي. وبعد أن تجاذبنا أطراف الحديث، وذهبنا فيه مذاهب شتى، قال لي: الآن وقد عرفت كل شيء، بماذا تنصح؟ لقد وافقت وكالة وزارة التربية والتعليم للآثار والمتاحف السعودية على مبدأ القيام بالتنقيب، وأود أن أقوم بمسح أثري أولاً، خاصة أن تلميذتي "ريزا توقوناقا" ترغب في مسح بعض النقوش العربية القديمة ودراستها، وأرغب أن أبدأ بالمسح ابتداء من نجران فالشمال. قلت له: جميل أن تبدأ زيارتك للمواقع الأثرية من نجران، ولكنني أعرف أنك ميال لمتابعة حركة التجارة بين الصين وموانئ البحر الأحمر. قال: نعم، قلت له: عليك بميناء "الجار"، فهو ميناء قديم وإسلامي تحدّث عنه كثير من العلماء، وآخر من زاره رائد الآثار الأول: عبدالقدوس الأنصاري. لقد ألف عنه كتاباً ورسم له خارطه. قال لي: لقد اطلعت على كل ذلك، وكأنّك تقرأ ما يجول في خاطري. نعم، إنني أتمنى أن أنقب في موقع له عمق تاريخي. قلت له: أما عن العمق التاريخي فلا تبحث، فكل مواقعنا ذات عمق تاريخي وحضاري؛ فالإسلام هو استمرار حضاري لِما كان في الجزيرة العربية وتحوّلٌ عَقَدِيٌ لما كانت عليه. واستقر الرأي على ذلك. وقام برحلتة المسحية وعاد، فاتفقنا أن "الجار" هو المكان المفضل. أما تلميذته "ريزا توقوناقا"، فقد هُيّء لها أن تجمع قرابة ألفي نقش من موقع بئر حمى وما حوله، وهذا موقع بالقرب من نجران. وشعرت "ريزا" أنها عادت بكنز ثمين. وتكررت زيارتهما لي. وفي إحدى هذه الزيارات استأذنني في أن أشارك في دراسة تلميذته لهذه النقوش، وأن أكون ممتحناً خارجياً لها عندما تنتهي من دراستها لهذه النقوش، في جامعة كويو بطوكيو. فقلت له: حُبّاً وكرام.ة وأصبح الدكتور كواتوكو يبعث لي أجزاء من عمل الطالبة أولاً بأول، وأُبدى ملاحظاتي عليها. ومرت الأشهر تلو الأشهر، وإذا بالطالبةُ تنهي دراستها وتصلني رسالتها في مجلدين. وبعدهما وصلتني دعوة كريمة من الجامعة لمناقشة الطالبة، ولإلقاء محاضرتين؛ إحداهما على طلاب الدراسات العليا، والأخرى على أعضاء هيئة التدريس.

ولعل القارئ لا يهمه هذا الجانب، ولكن الذي يهمه أنني اكتشفت أن طوكيو تختزن تراثاً حضارياً تحت سطحها؛ ولذا لا يمكن إقامة مبنى على أرض يُشك في إمكان كونها موقعاً أثرياً إلا ويوقف العمل ويعطى الأثاريون وقتاً كافياً لفحص الأرض وإجراء التنقيبات، وما أروع تلك التنقيبات! إن الطريقة التي يتبعها اليابانيون في أعمالهم تدل على

مدى الحذق والدأب والصبر والتفاني في العمل، ما يجعل النتائج لا يرقى إليها الشك، ولا أظنهم يستعملون: "ربما، ومن المحتمل، ومن الجائز".

ولقد أتاحت لي هذه الزيارة فرصة التعرف عن قرب على "الأكدمة اليابانية"، لعلك تعجب إذا وجدت أن أحدهم درس رحلة ابن بطوطه وترجمها إلى اليابانيين في مجلدات، وأنه حقّق المواقع التي جاءت في الرحلة، ورسم خرائط لهذه الرحلة وما هو مكتوب فيها عن مشاهدة أو عن سماع، ومقدار صدق هذا الذي سمعه ابن بطوطه. ونحن هنا لم نتعامل مع رحلة ابن بطوطه إلا من حيث هي متعة وتسليه وإزجاء للوقت. وقد فرحنا كثيراً عندما أعاد الأستاذ الجليل الدكتور عبد الهادي التازي تحقيق الرحلة وطبعها في خمسة مجلدات. أما دراسة الرحلة، بل ورحلات أخرى دراسة أنثروبولوجية، فذلك بعيد عن مدركاتنا مع أن المادة جاهزة، ولا تحتاج إلا إلى نظرة علمية فاحصة، ومنهج علمي واضح.

*****

أطلعني أحدهم على ألبوم كامل عن الآثار في المملكة، والمواقع التي زارها. وهو يتحرق شوقاً للتنقيب في مواقع العصر الحجري الحديث في شمالي المملكة. أما موقع قُرَيَّة غربي تبوك، فإنه يقول عنه: إنه الموقع المهم جداً في شمال غربي المملكة، لأنه يعبّر عن أصالة التاريخ العربي، نعم العربي. إن الموقع يُعَدُّ بحق نموذجاً متفرداً في فخاره ومعثوراته، ليس له شبيه فيما حولها من الحضارات؛ وآخر و أخر كل يتحدث عن جانب من جوانب الحضارة العربية السعودية.

لعل من أجمل الأشياء التي أسعدتني، حضور الأمير ميكاسا -عم الإمبراطور الياباني الحالي- محاضرتي على الطلاب. وقد طلب منه البروفيسور كاواتوكو أن يحضر محاضرة أعضاء هيئة التدريس، بدلا من الحضور مع الطلاب؛ فقال الأمير بكل تواضع: إن معلوماتي عن أثار المملكة لا تتعدى مستوى الطلاب. واستمتع هو بالمحاضرة، كما استمتعت أنا بحضوره وتواضعه وإنسانيته وبساطته.

أما تلميذتنا "ريزا توقوناقا" فقد أبلت بلاءً حسناً في دراستها، إذ درست ما لا يقل عن ٨٠٠ نقش مما جمعته من النقوش، وحللتها وشرحتها ووقفت عند مفرداتها. وحاولت أن تضع لها تسلسلاً تاريخياً، مع وضع صورة ورسم لكل نقش درسته. تلك هي العزيمة، التي تعكس صفة من صفات الفرد الياباني وهو الإصرار على الكشف المعرفي. فماذا يهم الياباني أن يعرف كل ذلك عن الفكر العربي والثقافة العربية؟ لذا، فشلنا نحن العرب في التّعرف على حضارة الأمم الأخرى وتاريخها، من خلال بعثاتنا للدراسات العليا؛ فلا يوجد في جامعاتنا من دَرَسَ العصور الوسطى في أوروبا لذاتها، ولكنه لكي يجد طريقه إلى العودة بالدكتوراه يربط عمله بما له علاقة بالمشرق العربي أو الإسلامي. وهكذا في كل التخصصات، نطلب الفكاك بأيسر الطرق ونعود.

رئيس هيئة التحرير